مجلة المختار للعلوم الإنسانية 4 (1): 133-145، 2006

Research Article Open Access

الموت ودلالته في أدب غسان كنفاني الروائي

عبدالمطلوب عبدالحميد الطبولي

Doi: https://doi.org/10.54172/134mvj06

المستخلص : تتناول هذه الدراسة الموت ودلالته في أدب غسان كنفاني الروائي. يهدف البحث إلى استكشاف كيفية تناول كنفاني هذا المفهوم في أعماله الأدبية. يعتبر كنفاني روائيًا فلسطينيًا بارزًا وصاحب أعمال مؤثرة في الأدب العربي. يتضمن التحليل دراسة رواياته وقصصه لفهم كيفية تجسيد الموت وتصويره في أعماله. يتمحور التحليل حول الأساليب الأدبية والرموز التي يستخدمها كنفاني لنقل رؤيته للموت وتأثيرها على النصوص والشخصيات. يهدف البحث إلى توفير نظرة شاملة على تأثير الموت والدلالات المتعلقة به في الأدب الروائي لكنفاني. قد تسلط هذه الدراسة الضوء على الرؤية الفريدة التي يقدمها كنفاني للموت وتأثيرها على القراء وفهمهم لأعماله الأدبية.

الكلمات المفتاحية: الموت، رمزية، تصوير

Death and its Symbolism in the Literature of the Novelist Ghassan Kanafani

Abdulmoutaleb Abdulhamid Al-Tebouli

Abstract: This study examines death and its significance in the literary works of Ghassan Kanafani. The research aims to explore how Kanafani addresses this concept in his literary works. Kanafani is a prominent Palestinian novelist and author who has made a significant impact on Arabic literature. The analysis includes a study of his novels and stories to understand how death is embodied and depicted in his works. The analysis revolves around the literary techniques and symbols Kanafani employs to convey his vision of death and its impact on the texts and characters. The research aims to provide a comprehensive insight into the influence of death and its associated meanings in Kanafani's narrative literature. This study may shed light on the unique perspective Kanafani offers on death and its effect on readers' understanding and interpretation of his literary works.

Keywords: Death, Symbolism, Portrayal

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

يشكّل الموت عالماً كثيفاً في روايات غسان كنفاني (1936 . 1972) ، وينبثق حضوره في أعماله من تجربته الشخصية ، ومن إيمانه العميق بهويته الفلسطينية ، التي عاش لها ، ومات شهيداً من أجلها .

كان غسان كنفاني يواجه الموت بشكل دائم إثر إصابته بمرض السكري وما صاحبه من إغماء ، وكان يحقن نفسه بـ"الإنسولين" كلّما اشتدّ عليه المرض ، وكان الموت عنده موازياً للحياة[i]. وكان مرضه ومعايشته القضية الفلسطينية بكل جوارحه من أقوى العوامل التي جعلت عالمه مشبعاً بالموت .

عاش غسان كنفاني ، ومات من أجل فلسطين ، وكان يدرك أن إصراره على حثّ أبناء وطنه على النضال ، والبطولة والصّمود يحمل في طيّاته خطر الموت الذي ما لبث أن أدركه حين أقدم العدو الصهيوني على اغتياله في الثامن من حزيران من عالم ألف وتسعمائة واثنين وسبعين ، فكان الشهيد/الرمز ، وأصبح "النموذج العنيد للذين يبحثون عن حسٍّ يلجون منه إلى كل تاريخ ثائر ضد الاحتلال ، وضد تجار الموت والرقاب لتأكيد الذات والهوية ، ولتنفيذ حُلم العودة من وحل المخيمات ، وشتات المنافي ، ودموع المآسي ، وأيضاً ممارسة حُلم التحرر من عقد الانتظار ، والصمت الطويل"[ii].

ويبرز الموت عنواناً لأولى مجموعاته القصصية "موت سرير رقم 12 " حيث يموت بطلها غريباً بعيداً عن وطنه موتاً مجانياً . كما يبرز الموت المجاني ، أو الموت الذليل في عدد من قصصه القصيرة مثل :"كعك على الرصيف"، و"الأفق وراء البوابة"، و"لؤلؤ في الطريق"، و"شيء لا يذهب"... لقد شكّلت ظاهرة الموت النسيج الأساسي في أغلب كتابات غسان كنفاني[iii].

وتبلغ معالجة كنفاني للموت ، وظلاله في عالم الهزيمة ، ذروتها في روايته "رجال في الشمس" التي كتبها عام 1963 .

تتناول الرواية حكاية ثلاثة من الفلسطينيين أرهقهم شظف العيش ، ودفعهم إلى البحث عن ملاذ آمن لكسب القوت بعيداً عن الأرض ، هذا البحث أسلمهم إلى موت فاجع ؛ لأنه كان محاولة فردية بعيدة عن الخلاص الجماعي الذي ينشده الفلسطينيون .

وقد تعرّض الفلسطينيون الثلاثة لشتى أنواع ابتزاز المهربين واستغلالهم سعياً وراء السفر إلى الكويت ، وأملاً في تحقيق رغد العيش . يلتقي هؤلاء بفلسطيني رابع يُدعى "أبوالخيزران" يعمل سائق شاحنة يمتلكها رجل كويتي ثري ، ويوافق على تهريبهم داخل الصهريج الفارغ المحمول على الشاحنة لنقل الماء مقابل مبلغ من المال . ينجح أبو الخيزران في اجتياز بوابة الحدود الأولى ، وينجو الفلسطينيون من الموت اختناقاً داخل

الصهريج الفارغ تحت الشمس الحارقة ، ولكنه يُعطَّل في البوابة الثانية بسبب ممازحة رجال الحدود، واستفساراتهم عن مغامراته مع إحدى الراقصات بالبصرة ، وهو الذي كان قد فقد رجولته بسبب إصابته بقذيفة في (حرب 48). وعندما صعد أبو الخيزران إلى فوهة الصهريج ليطمئن على الفلسطينيين الثلاثة ، وجد أنهم ماتوا اختناقاً داخل الخزان . وتنتهي الرواية بأن ألقى سائق الشاحنة الجثث في مرمى القمامة بعد أن سلب ما وجده من نقود وممتلكات .

وحين طفق عائداً تردد في ذهنه سؤال كبير ما لبث أن انبثق على لسانه :

"لماذا لم تدقّوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟"[iv].

ويشير هذا التساؤل ـ الذي يُعد أسَّ الرواية ـ إلى الموقف النقدي ، وكأن غسان كنفاني يسأل ـ من خلال هذه النهاية المفتوحة ـ الفلسطينيين لماذا تقبلون الموت صمتاً ؟ لماذا لا تقوون على الصراخ ؟ ففي هذا التساؤل إدانة للصمت الذي ران على الفلسطينيين آنذاك "الشعب الفلسطيني يموت كل يوم في الخزان دون أن يصرّخ ، فعلى الأرض أن تصرخ الآن"[v].

إن مأساة هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة هي أنهم ماتوا ـ كما عاشوا ـ في حالة انتظار دائم ، ومن المفارقات أنهم لم يروا الشمس التي كانت سبباً في موتهم ، فقد ظلوا دائماً في الظلام ، يثقون في قيادة عاجزة (يمثلها أبو الخيزران) . يقول إحسان عباس :"وهذه الأجيال تسلم مصيرها إلى قيادة مصابة بالعجز ، وتشترك معها في اختيار الوجهة الخاطئة، بل تبلغ من السذاجة حدّاً مخيفاً ترضى أن تسير في تلك الوجهة ، وهي محجوبة الأبصار دون رؤيتها ، قابعة في جوف صهريج مظلم ، مكمومة الأفواه ـ بعد انغلاقه ـ عن الصراخ، ولو صرخت لم يسمعها أحد"[vi].

وعلى الرغم من أن أبا الخيزران هو الوحيد الذي نجا ، فإنه كان أكثرهم معاناة ؛ لأنه ـ بمعنى أو بآخر ـ ميت . ففي ثقافة الشرق التي تراهن على الفحولة يُعد أبو الخيزران ـ الذي فقد رجولته ـ وحيداً محكوماً عليه بالعجز .

وتبدو المفارقة ـ كذلك ـ واضحة في اسمه الذي ظاهره فيه صلابة ، ومتانة ، وباطنه فيه الهشاشة والضعف .

وتؤكد الرواية ـ من خلال إطارها الرمزي ـ أن الفرار بعيداً عن الأرض ينتهي بالموت الفاجع المجاني الذي لا ثمن له ؛ إذ إن الفلسطينيين الثلاثة "كانوا يعتقدون أن الفرار سيجلب لهم الظل والاستقرار ، فإذا

هو يستحضر لهم الموت دون أية فائدة على المستويين الخاص والعام ، بعكس الفرار تجاه الأرض ، والموت على صدرها"[vii].

لقد بدا الفلسطينيون الثلاثة ـ في نهاية المطاف ـ جثثاً باردة لا تستجيب لنداء أبي الخيزران الذي تردد صداه ، فربما آثر هؤلاء الفلسطينيون الموت على السجن إذا ما انكشف أمرهم . ومهما كان الأمر ، فإن غسان كنفاني فضّل أن يبقى صامتاً في هذا الموقف ، وقام أبو الخيزران بالدور واختتم أحداث الرواية بالحيرة الكامنة في تساؤله الختامي ، وفي نغمة اليأس ، وقد تركت في القارئ إحساساً بالفاجعة والغضب ، دون أن يفرض الكاتب عليه نهاية مرتّبة ، فالسؤال بقي من دون إجابة ، ومصير أبي الخيزران ظلَّ مجهولاً ، ولكن القضية تكشّفت أبعادها وأثارت وعياً جديداً ؛ لأن "التفاعل مع الحياة المرهقة بدأ ينتج أسئلته . والسؤال الرئيس بحاجة إلى جواب ، الكاتب يتمسّك جيداً بمقوده ، فالغرق في مجانيّة الموت يجب أن يصحبه سؤال ، وسؤال جارح تردده الصحراء حتى تتبدّى معالم الطريق"[viii].

وقد برزت دلالة الموت ، وأثرها بوضوح في موقف فضل النقيب حين قال : "عندما قرأنا هذه القصة ... وشعرنا مع الكلمات بنبض قلوبنا يرتفع كصوت طبول تأتي من بعيد ، تشتد مع كل مقطع ، مع كل صفحة ، وتعلو في النهاية كصوت طبول الموت، فتضيق أنفاسنا ونحن نرى القبر يلتهم واحداً منّا ، ونجبر على أن نتساءل : متى يأتي الدور"[ix].

لقد بدأت الرواية بنبوءة الموت ، وانتهت به موتاً فاجعاً مجانياً لا ثمن له ، ففي بداية الرواية صوّر كنفاني "أبو قيس" مرتبطاً بالأرض قبل رحيله عنها ، وقد ألقى بجسده على الأرض النديّة :

"أراح أبو قيس صدره فوق التراب الندي ، فبدأت الأرض تخفق من تحته : ضربات قلب مُتعب تطوف في ذرات الرمل مرتجفة ثم تعبر إلى خلاياه"[x]، وبينما كان أبو قيس منبطحاً على الأرض ، كان هناك طائر أسود يُحلق فوقه . هذا المشهد يتكرر في نهاية الرواية ، لكن قلبه المتعب لم يَعُد يخفق . وهكذا أعدّ غسان كنفاني المشهد إذ قدّم نذيراً بالموت في صورة هذا الطائر الأسود (الغراب). ويتكرر مثل هذا الصنيع في الرواية عندما نجا الفلسطينيون من الموت اختناقاً داخل الخزانة في البوابة الأولى ، فقد وصف كنفاني مظهر أسعد ـ أحد الفلسطينيين الثلاثة ـ قائلاً :" أما صدره فقد انطبعت عليه علائم الصدأ فبدا وكأنه ملطخ بالدم ".

فصورة الدم تمثل الموت ، ولكن مصيرهم لم يكن ـ في تلك المرة ـ الموت الفاجع ؛ لأن الصورة تمضي

قدماً على النحو الآتي :

"فدوّر [أبو الخيزران] نظره فوق وجوههم فبدت له وجوهاً صفراء محنَّطة ، ولولا أنَّ صدر مروان كان يرتفع ويهبط ، ولولا أن أبا قيس كان يتنفس بصفير مسموع، لخيّل إليه إذن أنهما ميتان"[xi]، ويبدو نذير الموت حين قاد أبو الخيزران الشاحنة بأسرع ما يمكن "وحين وصل إلى المنعطف صفّرت العجلات صفيراً متواصلاً كأنه النّواح"[xii].

لقد نجح كنفاني في تأكيد مضمون روايته ، وهو أن الأمل الذي ينتهي بالموت أمل كاذب ؛ لأنه محاولة لإيجاد مخرج ، وهو قبول بواقع الهزيمة والتسليم بها . وكأن كنفاني يحمّل القيادة الفلسطينية ـ المتمثلة في أبي الخيزران ـ مسؤولية الهزيمة والاستسلام ، وخطأ الاتجاه ؛ لأنها قيادة تبحث عن مآربها الخاصة قبل أن تتخذ الفعل للحفاظ على الوطن والهوية .

فالخلاص لا يتحقق إلاَّ من خلال النضال والمقاومة ، وهو ما أكده غسان كنفاني في رواية "ما تبقى لكم" .

بعد أن كشف غسان كنفاني النقاب عن الواقع الاجتماعي وأدانه في رواية "رجال في الشمس" حيث أظهر أن الموت المجاني هو نتيجة حتمية لمن يبتعد عن الأرض خلافاً للفرار تجاه تلك الأرض ، والموت من أجلها موتاً من أجل ميلاد جديد ، فإن الهروب في رواية "ما تبقى لكم" (1966) كان في الاتجاه الصحيح نحو الأم/الوطن . تدور الأحداث عن شاب فلسطيني يُدعى "حامد" يعيش مع أخته "مريم" في غزة التي لجأ إليها بعد سقوط يافا في أيدي اليهود ، وموت أبيهما في المعركة ، وانفصال أمهما عنهما مضطرة للعيش في الأردن . تقدّمت مريم في السن ، ومنحت نفسها لزكريا فحملت منه. لا يقوى "حامد" على تجرّع المرارة فيترك أخته مع زوجها الذي ينعته "بالخائن النتن" ؛ لأنه كان قد وشى "بسالم" قائد المقاومة فقتله اليهود ، وكان زكريا ـ في الوقت نفسه ـ متزوجاً بإحدى صديقات "مريم" وله منها خمسة أطفال ، يعبر حامد الحدود خلسة إلى الأردن حيث تقيم أمه . يلتقي في الطريق عبر الأراضي المحتلة بجندي إسرائيلي فيجرّده من سلاحه ، ويشد وثاقه ثم يجلس في مواجهته طوال تلك الليلة إلى أن تشرق الشمس . صوّر غسان كنفاني في هذه الرواية تجربة اللجوء وضياع الوطن في إطار عالم شديد البؤس والقسوة ، يتجاوز حدَّ اليأس إلى الانتحار .

وقد سخّر كنفاني إمكاناته الفنية واللغوية في هذه الرواية فجاءت محكمة البناء ، كما سخّر الكاتب

تجاربه الحياتية وحكايات أبناء جلدته الذين يرزحون تحت وطأة هذه الحياة القاسية ، فالقيم مهددة ، والأمل معدوم . أخت تفرّط في شرفها ، وصديق يخون صديقه ، ومناضل يسقط بسبب الخيانة ، وأب يكره ابنه ويريد التخلص منه ، وإذاعات تنقل أخبار اللاجئين ، وتذيع رسائلهم إلى ذويهم في الشتات ، وزوج يخون زوجه وله منها خمسة أطفال ، أبٌ يقتل في الطريق ويحمل ملفوفاً بمعطفين ملوثين ، والناس كأنهم في يوم الحشر يطوفون في موج داكن من الصراخ ، في فراغ أسود بلا نهاية" فما الذي تبقى لكم أيها الفلسطينيون التعساء ؟! بقايا الأخشاب المحترقة تصنعون منها أكواخ لجوئكم الذليل ؟! "كان حامد في هذه الرواية في مواجهة دائمة مع الموت ، يواجه الجندي الإسرائيلي ، وبينهما حد السكين ، فتكون المواجهة هي سبيله للنجاة بحياته ، فالأرض هنا هي الأم التي يسعى إليها حامد مواجهاً أهوال الصحراء التي تتعاطف معه "وفجأة ، جاءت الصحراء . رآها الآن لأول مرة مخلوقاً يتنفس على امتداد البصر ، غامضاً ومريعاً وأليفاً في وقت واحد"[xiii].

تستجيب له الصحراء ، وتمنحه الحياة إذ إنه عاقد العزم على الخلاص الحقيقي من الواقع المهين ، خلافاً لصحراء "رجال في الشمس" التي قضت عليهم واجتثت أملهم الكاذب في رغد العيش بعيداً عن الوطن . والشمس في رواية "ما تبقى لكم" لا وجود لها؛ لأن المواجهة تمّت في الليل ، ومن ثم ، فإن أكثر عناصر الصحراء خطورة وهو القيظ لا حضور له هنا[xiv].

وبينما يواجه حامد عدوَّه ، وينتصب حد السكين بينهما ، تواجه مريم زكريا الذي يدفعها إلى إجهاض حملها ، وتطعنه بسكين ، بينما كانت خطوات أخيها حامد "تدق فوقه . مكوماً هناك قطعة من الموت"[xv].

ويتخذ الموت في هذه الرواية أبعاداً متداخلة تداخل أحداثها وأزمنتها وشخصياتها ، فموت سالم كان إيذاناً بميلاد شبح ، وموت زكريا رمز لموت ذليل ، وهو موت ضروري لميلاد جديد ، وينتهي حديث غسان عن الموت الذليل بميلاد بطل إيجابي يتحرك ضمن الجماعة التي ما تنفكّ تسعى جاهدةً إلى تحويل الواقع إلى عمل ثوري يؤثر .

وضمن هذا الإطار ، لابدَّ من المرور بمرحلة تطهير للتخلص من المعوّقات الذاتية ؛ لذلك أراد كنفاني أن يؤكد في هذه الرواية أن مريم غرست سكينها في أحشاء زكريا خائن القضية ؛ لأنه كان يسعى إلى خيانة جديدة ، حين طلب منها إجهاض نفسها ، ومن ثم فهو يحرمها من جنين يتشكّل فيها أملاً

تعده للمستقبل ، وحين تدفعه إلى الحائط وتغرس سكينها في أحشائه يتكوّم على الأرض ليلقى المصير الذي ينتظر الجندي الإسرائيلي الذي جرّده حامد من سلاحه . ويأتي موت زكريا تأكيداً على التطهير من السلبيات الذاتية ، فالموت هنا من أجل حياة كريمة لا مكان فيها للضعف ، أو الخيانة ، أو الطمع .

لقد اختارت مريم أن تكفّر عن خطيئتها بقتل زكريا رمز الخيانة والغدر ؛ لأنه لا يقل خطورةً عن العدوّ الحقيقي ، وفي موته حياة لها ولطفلها المأمول الذي سينسيها فداحة الخسارة والعار .

إن أبطال غسان كنفاني في رواية "رجال في الشمس" يموتون دون صراخ ودون محاولة لاتخاذ الفعل ، أما أبطال رواية "ما تبقى لكم" فإنهم يتداخلون حتى لتخالهم بطلاً واحداً هو الموت ، الموت من حيث هو فعل وتحدٍّ"[xvi]. الموت البشارة بميلاد جديد من أجل حياة كريمة ذات معنى .

وتُبرز الرواية . فضلاً عن ذلك . حق الفلسطيني في العودة من الشتات ، وحقه في الدفاع عن مستقبله ؛ لتحقيق حياة شريفة عن طريق النضال ومقاومة العدو ، وقد حقّق غسان كنفاني في هذه الرواية مضموناً ثورياً واقعياً ، وحدَّد موقفه من الصراع مع العدو الغاصب ، ووظَّف إمكاناته الفنية لتحقيق غايته المنشودة وهي إزالة آثار الاحتلال عن وطنه ، وتبديد أوهام المحتلين والعملاء ، والخائنين والمساومين ومعايشة واقع المضطهدين في المخيمات والمشردين في الشتات من الفقراء والفلاحين والعمال الفلسطينيين . ولا غرو في ذلك ، فقد كان غسان كاتباً بحجم قضيته التي مات من أجلها ، فالوطن قضية تستحق أجلَّ التضحيات ، وتحتاج إلى المقاتل الذي يبذل روحه رخيصةً من أجلها .

أكد غسان كنفاني هذه الرؤية في روايته "عائد إلى حيفا" التي أوحت بها حركة المهاجرين الفلسطينيين الذين أُجبروا على مغادرة ديارهم عام 1948 ، حيث سمحت لهم سلطات الاحتلال الصهيوني عقب حرب 1967 ، بزيارة أراضيهم المغتصبة بعد عشرين عاماً من مغادرتهم إيّاها ، فعاد هؤلاء يتحرّقون شوقاً لرؤية بيوتهم ومدنهم وأهلهم . وتدور أحداث هذه الرواية عن عودة "سعيد" وزوجه "صفيّة" إلى حيفا حين فتحت الحدود بين الضفة الغربية ، وفلسطين المحتلة . كان الزوجان يحلمان بالعودة إلى موطنهما ويتوقان إلى العثور على ابنهما "خلدون" الذي حيل بينهما وبينه أثناء سقوط حيفا في يد الصهاينة عام 1948 ، حين كان الطفل في شهره الخامس . شعر الزوجان بالمرارة والخجل حين عادا لزيارة منزلهما ؛ إذ وجدا أن بيتهما قد خُصِّص . عن طريق وكالة يهودية . إلى مهاجر يهودي قدم مع زوجه العاقر من وراسو ، ووجدا كذلك أن ابنهما "خلدون" قد سُلِّم إلى الزوجين اليهوديين ليقوما بتربيته ، وقد أصبح ضابطاً في

الجيش الإسرائيلي ، واستبدل اسمه السابق ، وأصبح يُدعى "دوف" ، وتضج أعماق الأبوين بالمرارة ، والألم ، ويحاولان إقناع "دوف" بهويته الفلسطينية دون جدوى ، وعندما طلبت المرأة اليهودية "ميريام" أن يُخيَّر "دوف" بين أبويه الحقيقيين ، وأبويه اليهوديين بالتَّبنّي ، وافق "سعيد" وزوجه "صفية" على الاقتراح آملين أن يختار ابنهما هويَّته ، بناءً على رابطة الدم ، أو النسب ، ولكن "دوف" يقول لأبويه :

"كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا ، وإذا لم يكن ذلك ممكناً ، فقد كان عليكم بأي ثمن ألاَّ تتركوا طفلاً رضيعاً في السرير . وإن كان هذا ـ أيضاً ـ مستحيلاً ، فقد كان عليكم ألاَّ تكفّوا عن محاولة العودة ... أتقولون إن ذلك ـ أيضاً ـ كان مستحيلاً ؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي ! عشرون سنة ! ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك ؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا . أيوجد سبب أكثر قوة ؟ عاجزون ! عاجزون ! مقيَّدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلّف والشلل ! لا تقل إنكم أمضيتم عشرين سنة تبكون ! الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ، ولا تجترح المعجزات ! كل دموع الأرض لا تستطيع أن تحمل زورقاً صغيراً يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود ... ولقد أمضيت عشرين سنة تبكي ... أهذا ما تقوله لي الآن ؟! أهذا هو سلاحك التافه المفلول ؟" [xvii].

فأنت ترى المرارة والأسى ظاهرةً في هذا الكلام ؛ إذ يكشف كنفاني عن معاناة التمزق والشتات واجتثاث الهوية التي يواجهها الشعب الفلسطيني ، وأوضح ضرورة الفعل المتمثل في حمل السلاح ، والموت من أجل إثبات حق الوجود ، والعودة إلى الوطن بدلاً من الحُلم والتأسّي والرِّهان على العواطف الجوفاء ، فالوطن قضية وجود لا يتحقق إلاَّ بالتضحيات الجسام ، والموت من أجل حياة كريمة ، لا بالموت المجاني الفاجع ، أو التخلي عن الأرض .

وتتعدد في الرواية الإشارات إلى الهزيمة ورموزها ، فهو "سعيد" يراها في فتح البوابة من الجهة الأخرى حتى كأنها لم تُفتح ، وفي عودته إلى حيفا بلا حرب ، ممّا سمّاه "الهزيمة المريرة التي ذاقها مرتين على الأقل في حياته"[xviii]. ويراها أيضاً في أشيائه الحميمة الخاصة الباقية في بيته القديم التي تصوّرها دائماً ملكية غامضة مقدَّسة ، لم يستطع أي كائن أن يتعرّف عليها ، وأن يلمسها ، أو أن يراها حقّاً"[xix]، وقد صارت هذه الأشياء ملكاً لغيره ، فضلاً عن كل ذكر .. فإن الهزيمة ماثلة في "هذه الـ"لكن" الرهيبة المميتة الدامية"[xx]، قال سعيد ذلك بعد أن قال للمرأة اليهودية :" إن وجودك هنا هو موضوع آخر ، جئنا فقط ننظر إلى الأشياء ، هذه الأشياء لنا ، ربما كان بوسعك أن تفهمي ذلك، فقالت بسرعة :" أفهم ولكن ..." [xxi]،

هذه الـ"لكن" التي قال فيها أحد الأدباء : إنها أكثر أخوات "إنَّ" استعمالاً عندنا في هذا العصر .

وتشير رموز الرواية إلى مرارة هزيمة حزيران عام 1967م ، ففي مستهل الرواية نجده يقول :" فوقه كانت الشمس ؛ شمس حزيران الرهيب ، تصب قار غضبها على الأرض"[xxii].

فهو يشير إلى ما كان يوم الخامس من حزيران عام 1967 ، إنه يشير إلى هذا أكثر من مرّة فيوم أُخرجوا من حيفا عام 1948 ، وترك سعيد وزوجه ابنهما ، كان الابن قد "أتمَّ في ذلك اليوم شهره الخامس"[xxiii]، وأعواد ريش الطاووس كانت سبعة فصارت خمسة[xxiv]، والطاووس يُضرب به المثل في الزهو والخُيلاء فالعرب تقول :" أزهى من طاووس"، ورقم سبعة كثيراً ما يُرمز به للنصر ، ويرتبط بالطاووس ما أراد أن يُعبِّر عنه من مرارة الهزيمة ؛ إذ يقول :" وضع قبعته على الطاولة ، وبدت قرب المزهرية الخشبية وريش الطاووس فيها شيئاً غير مناسب ، وإلى حدٍّ ما مضحكاً"[xxv]؛ وإذ يقول :

" كان قد أنهى سيكارته [أي سعيد] فقام إلى الطاولة ليطفئها واضطرَّ كي يفعل ذلك أن يزحزح القبّعة من مكانها وفعل ذلك وهو يبتسم بسخريّة ..." [xxvi].

وتحتاج هذه المرارة الناجمة عن الهزيمة إلى تضحيات جسام ، وتحتاج إلى قتال وتقديم الأرواح فداءً للوطن ، فحيفا نفسها تقول ذلك ؛ إنها تنكر سعيداً إذ جاءها مسالماً حيث يقول :" إنني أعرفها ، حيفا هذه ، ولكنها تنكرني"[xxvii]، وهو إنكارٌ ربّما كان شبيهاً بإنكار خلدون له ، ولومٌ ـ أيضاً ـ كلومه له ، وبعد عشرين سنة مازالت رائحة الحرب "هناك بصورة ما ، غامضة ، ومثيرة ومستفزة"[xxviii].

وتختتم الرواية بموقف إيجابي حين يتمنى سعيد أن يكون ابنه الثاني "خالد" قد التحق بالفدائيين بعد أن منعه في الماضي من ذلك بسلطة الأبوة . فخالد الذي لم يكن عنده الوطن مجرد ذكرى وحُلم ، أدرك حقيقة الموت من أجل تحقيق حلم العودة ، فهو "شرفنا الباقي "، أما دوف فهو "عارنا"[xxix].

فالمستقبل هو الذي سيصحح خطأ الماضي ، فخلدون (دوف) رمز "لجريمة جيل فلسطين منذ أن ترك الأرض ، ثم تباكى على فقدها"[xxx]، وفارس اللبدة رمز البقاء على عهد الاستشهاد والشهداء والوفاء لهم والاستمرار على دربهم الذي سلكوه ، أما الرجل العربي الذي استأجر بيت فارس اللبدة ، ورفض أن يغادر (يافا) ، فإنه رمز الجذر العربي الأصيل في فلسطين المحتلة .

إن الرواية إدانة للعلاقات القائمة على رابطة الدم وحدها ، فالأبوة قضية ، والبنوّة قضية ، والوطن قضية .

أدركت شخصيات كنفاني بالفطرة وبالفهم البسيط أن "الحياة لا يُمكن أن تُعاش وتكون ذات معنى إلاَّ إذا ربط الفرد وجوده بعلاقة أو جسر ، وحين تنفصم العلاقة دون أن تَحُلَّ علاقة جديدة ، أو يتحطم الجسر دون أن يكون في الإمكان ترميمه أو إنشاؤه من جديد تفقد الحياة كل معنى لها ، ويصبح الموت هو البديل الطبيعي لها"[xxxi].

لقد عكست أعمال كنفاني القصصية ، والروائية المراحل التي مرّت بها القضية الفلسطينية ، وغاص كنفاني في كل ما هو واقعي وصادق ، وحدد موقفه ، وأدى دوره الذي لم يتخلَّ عنه ، وقد وُفِّقَ في الوصول إلى قارئه ، وإقناعه ، وضمان انحيازه له بالفن الناضج وبالمضمون الثوري الواعي .

كان غسان كنفاني ضمير أمّة كاملة ، وكانت خطيئته هي أن له لغةً وفعلاً ، وأنه يُعلن انتماءه لفلسطين بكل تحدٍّ وشموخ وتوهّج .

كان غسان الشهيد كاتباً بحجم قضيته "هو والقضية بلون واحد لا يمكن الفصل بينهما إلاَّ بالديناميت كما فعل الصهاينة ليلة الجريمة الجبانة ، أو نقول هو والوطن وجهان لبندقية واحدة ولقلم واحد ، وصوت واحد ، يموت ويظل حيّاً ، أو لشجرة لا تموت إلاَّ واقفة وعروقها في الأرض وفروعها في الأرض المحتلة ، لم يرضَ أبداً أن يموت جباناً صامتاً في مستنقع العار والركوع ، أو أن يقبل بأن يموت في الأمكنة الصدئة المغلقة كموت أبطال روايته "رجال في الشمس" مستسلماً من دون صرخة ، أو ثورة ، أو دق الحيطان العالية"[xxxii].

لم يعش كنفاني طويلاً ، كان يدرك أن الموت قريب منه ، وكان يدرك أن حياته ستكون قصيرة ؛ ولذلك كدّسها بالعطاء ، وبالإبداع ، والعمل ، والنشاط السياسي ، وبالرواية ، والقصة ، والمسرحية ، والمقالة ، واللوحة ، والخطبة ، اختار كنفاني أن يعيش اللحظات الحاسمة في تاريخنا مهما كانت قصيرة ، لقد كان دائماً في سباق مع الموت ، فكان يواجه الموت بالابتسامة ويبدده بالكلمة ، اغتالوه ببساطة ؛ لأنه وقف بجانب الإنسان الفلسطيني "ونقل الحبر إلى مرتبة الشرف ، وأعطاه قيمة الدم" على حد تعبير محمود درويش[xxxiii].

إن المرء ليكاد يرى غسان كنفاني يبتسم عبر الأفق ، وهو يرى نبوءته وقد صارت حقيقة ماثلة ، فقد أصبح الموت الذي يلف أبطال رواياته موتاً ذا معنى ، لقد أصبح موتاً من أجل حياة هذا الشعب المناضل ، فشهداء فلسطين اليوم يسطِّرون بدمائهم الزكية ملاحم الاستبسال ، والفداء التي ستكون زاداً لا

ينفد لهذه الأمة التي تستطيع بتضحيات أبنائها دحر المستعمرين الغاصبين ، فالوطن قضية ، ولن يعود لأصحابه إلاَّ عبر فوهة البندقية ، وفلسطين كنفاني اليوم تتضوع بطيب شهدائها ، وأبو الخيزران يقف مزهوّاً وهو يرى اليوم الفتية يدكّون القلاع ، ويردعون الغاصبين ، ويرى القادة يستمدون الإصرار والعزم من صمود المقاتلين ، ورفضهم الانحناء للجبروت .

لقد غاب غسان جسداً قبل أن يرى بأم عينيه كيف تحققت الرؤيا ، فقد أصبح خالد (في روايته "عائد إلى حيفا") فدائياً يجابه قراصنة الأرض ، وكيف أجهز حامد على عدوه ورشق كل من خان وطنه ، وأن "مريم" اختارت أن تقود نساء الوطن إلى معركة ضد الغزاة والخونة ممثلة في دلال المغربي ورفيقاتها من فدائيات فلسطين ، ويرى كيف حوّلت (أم سعد) وسعد ورفاقه (في رواية "أم سعد") المخيم إلى رحم ينجب الفدائيين ، ويدفعهم إلى المعركة بالهتاف والزغاريد ، وأن حميدو (في قصة "كعك على الرصيف") قد علّم أبناء المخيّم صنع المقالع ، ورمي الحجارة وإحراق الإطارات أمام زحف الدبابات ، والسيارات العسكرية ، فلم يقبل الشعب الفلسطيني الذي يقف اليوم شامخاً ، أن يموت دون أن يقوى على الصراخ كما مات أبطال رواية "رجال في الشمس". فها هم شهداء الانتفاضة المباركة يدقّون الجدار العازل في عنفوان يشبه عنفوان العود الذي غرسته "أم سعد" .

ولم يكن غسان كنفاني يبحث عن الموت بقدر ما كان يتلذذ طعم الحياة ، وطعم الأرض ، والوطن ، والحرية . كان غسان "قد قال قبل أن يُنسف جسده بسنوات ، نبوءته في كتاب حياته "رجال في الشمس" الرجال ذاهبون إلى الظل ، ليبقى دائماً تحت الشمس الدافئة الملتهبة مكان لرجال جدد"[xxxiv].

لقد أدرك غسان كنفاني من خلال تجاربه الشخصية ، ورؤيته الفنية "أن الحياة لا قيمة لها قط إن لم تكن دائماً واقفة قبالة الموت" على حد تعبير راوي قصته "الأخضر والأحمر"[xxxv].

إن الموت في أعماله الروائية ، هو نهاية خصبة وواعدة بحياة أفضل ، وأن بقاء الإنسان سجال بين الحياة والموت ، وإن كانت الغلبة في نهاية المطاف لإرادة الحياة التي أرادها غسان لشعبه بعيداً عن بؤس المخيّمات ، ومآسي الشتات ، تلك الإرادة جعلت موته حياة متجددة .

الهوامش

(i) . يُنظر : بلال الحسن ، "غسان والموت" ، مجلة شؤون فلسطينية ، ع13 ، سبتمبر ، 1972م ، ص150 . 151 .

(ii) . أحمد بيضي ، "غسان كنفاني الشهيد الذي لم يمت" ، جريدة الاتحاد الاشتراكي (المغرب) ، 1992/7/31م ، ص12 .

(iii) . صبحية عودة زعرب ، غسان كنفاني : جماليات السرد في الخطاب الروائي ، عمان : دار المجدلاوي ، 2005م ، ص23 .

(iv) . غسان كنفاني ، الآثار الكاملة ، المجلد الأول (الروايات) ، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية، د.ت ، ص152 .

(v) . إلياس خوري ، "البطل الفلسطيني في قصص غسان كنفاني" ، مجلة شؤون فلسطينية ، ع13 ، سبتمبر ، 1972م ، ص174 .

(vi) . غسان كنفاني ، الآثار الكاملة ، المجلد الأول ، المقدمة ، ص18 . 19 . وانظر : سلمى الجيوسي ، "البطل في الأدب العربي المعاصر" ، مجلة الآداب ، ع1 ، 1960م ، ص76 .

(vii) . أحمد أبو مطر ، الرواية في الأدب الفلسطيني ، (1950 . 1975) ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1980م ، ص236 .

(viii) . إلياس خوري ، مرجع سابق ، ص174 .

(ix) . "عالم غسان كنفاني" ، مجلة شؤون فلسطينية ، ع13 ، سبتمبر ، 1972م ، ص194 .

(x) . الآثار الكاملة ، المجلد الأول ، ص37 .

(xi) . المصدر السابق ، ص121 . 122 .

(xii) . المصدر السابق ، ص140 .

(xiii) . المصدر السابق ، ص161 .

(xiv) . يُنظر : Hilary Kilpatrick , "Tradition and Innovation in The Fiction of Ghassan Kanafani" in Crtical Perspectives on Modern Arabic Literature . Edited by Issa J. Boullata , Washington : Three Continents Press , 1980 , p. 152

(xv) . الآثار الكاملة ، المجلد الأول ، ص233 .

(xvi) . إلياس خوري ، مرجع سابق ، ص175 .

(xvii) . الآثار الكاملة ، المجلد الأول ، ص408 . 409 .

(xviii) . المصدر السابق ، ص11 .

(xix) . المصدر السابق ، ص33 .

(xx) . المصدر السابق ، ص368 .

(xxi) . نفسه .

(xxii) . المصدر السابق ، ص342 .

(xxiii) . المصدر السابق ، ص351 .

(xxiv) . المصدر السابق ، ص33 .

(xxv) . المصدر السابق ، ص398 .

(xxvi) . المصدر السابق ، ص399 . 400 .

(xxvii) . المصدر السابق ، ص343 .

(xxviii) . المصدر السابق ، ص344 .

(xxix) . المصدر السابق ، ص412 .

(xxx) . رضوى عاشور ، الطريق إلى الخيمة الأخرى ، ط2 ، بيروت : دار الآداب ، 1981م ، ص141 .

(xxxi) . إحسان عباس ، "الجسور والعلاقات في قصص غسان : دراسة في فكره القصصي" ، مجلة شؤون فلسطينية ، ع13 ، سبتمبر ، 1972م ، ص142 .

(xxxii) . أحمد بيضي ، مرجع سابق ، ص12 .

(xxxiii) . غسان كنفاني ، الآثار الكاملة ، المجلد الرابع (الدراسات الأدبية) ، بيروت : دار الطليعة ، المقدمة ، ص11 .

(xxxiv) . لطفي الخولي ، "غسان كنفاني رجل تحت الشمس" ، مجلة شؤون فلسطينية ، ع13 ، سبتمبر ، 1972م ،

ص138 .

([xxxv]) . غسان كنفاني ، الآثار الكاملة ، المجلد الثاني ، ص353 . 354 .